لغة الآخر وواقع الذات من خلال كتابات مالك حداد.

طمين سارة: طالبة دكتوراه
إشراف د.عمار بن لقريشي
كلية الآداب واللغات جامعة محمد بوضياف مسيلة- الجزائر

ملخص: يتناول هذا المقال قضية الحتمية الثقافية، واللغوية الفرنسية عند الأديب الجزائري "مالك حداد" في مرحلة تاريخية حرجة، ارتبطت بمخلفات الوجود الاستعماري الفرنسي، ويقف بالموازاة عند بحث هذا الأديب عن ذاته المأزومة، أو هويته التي طمست بسبب استعمال لغة الآخر الاستعماري، هذا الأخير الذي نهج سياسة نشر لغته في أوساط الجزائريين كأحد الأساليب القاضية على هويتهم، والمخلخة لثوابت مقوماتهم، إيمانا منه أن اللغة تعد أحد أهم مقومات الهوية، من خلالها يستمد المجتمع أسباب تحضره، وثبات معالم شخصيته الجزائرية؟

الكلمات المفتاحية: اللغة، الهوية، الآخر، الذات.

Résumé :

Cet article aborde la question du déterminisme culturel et linguistique français chez l’écrivain algérien Malek Haddad dans une période historiquement critique associée à l’existence coloniale française. Et en parallèle prend en considération la quête de cet écrivain de son âme en crise, ou de son identité diluée à cause de l’utilisation de la langue de l’autre français.

L’approche de ce dernier était le déploiement de sa langue française parmi la population algérienne comme l’une des méthodes qui visent à supprimer leur identité et perdre constance à leurs principes. Croyant que la langue est un des éléments identitaires les plus importants, par laquelle la communauté tire les raisons de la civilisation et la stabilité de la personnalité Algérienne ?

Mots clés : la langue, l’identité, l’autre, Le soi

تمهيد:

يحيلنا القول بـ "لغة الآخر وواقع الذات في كتابات مالك حداد" إلى إشكالية ما تنفك أن تعاود الظهور بين الدارسين والمهتمين بهذا الشأن، تتمثل في إشكالية اللغة وسؤال الهوية التي طرحتها قضية كتابة الأدباء الجزائريين باللغة الفرنسية، كما يكشف عن حالة صراعية بين ذات جزائرية، والآخر الاستعماري الذي مارس على الجزائريين كل أصناف العنف منها العنف الثقافي واللغوي، فمن المعلوم أن الجزائر مرت بمرحلة استعمارية فرنسية من مخلفاتها انتشار لغة المستعمر بين المتعلمين والمثقفين، ذلك أن «الاستعمار فرض عليهم لغته وثقافته بهدف تشكيلهم وفق الرؤية الاستعمارية»[(1)]، فوجد الأدباء والكتاب الجزائريون ذواتهم – أمام سياسة الاستئصال الثقافي الفرنسية – في صراع بين حتمية الكتابة باللغة الفرنسية لإيصال صوتهم للآخرين، ورغبة التعبير عن هويتهم التي لا تكتمل في الأصل إلا باستعمال اللغة الأم، خصوصا مع ما يقره النقاد من أهمية اللغة في التعبير عن الهوية باعتبارها أحد مقوماتها، وعنصرا أساسا فيها إلى جانب الدين، والانتماء، والتي يجمعها شعار الهوية الجزائرية المعروف: الجزائر وطننا، العربية لغتنا، والإسلام ديننا.

1–اللغة أحد مقومات الهوية:

قد يبدو مفهوم كل من اللغة والهوية مستقلا ظاهريا، حيث يحمل كل منهما دلالة خاصة، غير أننا في حقيقة الأمر لا يمكننا الحديث عن اللغة أو تقديم تعريف للهوية بمعزل عن بعضهما خصوصا في هذا المقال، الذي يرى أن «اللغة من أهم مقومات الهوية»[(2)]، وليست – كما يعتقد البعض – مجرد «مجموعات من الأصوات ومقاطع من الكلمات، ينطق بها الشخص حسب ذوقه وهواه»[(3)]، أو أنها مجرد وسيلة لتحقيق التواصل.

إن للغة دور قد يغفل كثيرون عن خطورته، حيث أنها «في جوهرها مرآة صقيلة، تنعكس على أديمها عادات الإنسان، وقيمه، وتقاليده، وتتبلور فيها أنظمة المجتمعات ومثلها»[(4)]، فكل لغة بهذا تكشف عن حمولة ثقافية وحضارية، ينعكس بواسطتها حال المجتمعات ومدى تحضرها ورقيها، وبصورة أدق تنعكس من خلالها هوية كل مجتمع، وتميزه عن غيره من المجتمعات، فـ الهوية –

التي تختلف تعاريفها من مجال دراسي لآخر ويصعب وضع مفهوم موحد لها حسب اطلاعنا – تتجلى – وفق ما يتبناه هذا المقال – من خلال ما يتميز به مجتمع ما عن سواه لغويا ودينيا وثقافيا وتاريخيا...

ومن هذه الفاعلية اللغوية في تمييز كل مجتمع عن غيره وتشكيل خصوصيته، اقتضت ضرورة أن تحتل كل لغة عند شعبها مكانة مرموقة، واهتماما بالغا في مختلف المجالات، لأنها الوسيلة التي «تحفظ كيان الأمة، وتحمي أنظمتها وثقافتها»(5)، وتصون هويتها.

2–لغة الآخر الاستعماري وعلاقتها بالأدب الجزائري:

إن المقصود بالآخر هنا هي فرنسا الاستعمارية، التي تختلف خصوصياتها تاريخا وعرفا وعقيدة ولغة وحضارة...الخ عن خصوصيات الشعب الجزائري، فقد تعرضت الجزائر إلى استعمار فرنسي حاول مد جذوره في هذه المستعمَرة، وليوطن أقدامه، وحضارته في الأراضي الجزائرية تحت مخطط "الجزائر مقاطعة فرنسية"، قد فضل أن يضرب «مقومات الشخصية الجزائرية ممثلة في العادات والتقاليد المتجذرة في أعماق ذاكرة الفرد الجزائري وترابه، وكذلك ضرب مقدساته كاللغة والدين وهو مجمل التاريخ الحضاري للشعب الجزائري»(6).

لقد تبدت بصورة واضحة إدراك فرنسا الاستعمارية لقيمة اللغة في تشكيل معالم الهوية، والحفاظ على المقومات الوطنية، وثوابت الشخصية الجزائرية ، فـ «بقدر ما يحافظ أهل لغة ما على خصائص منطوقهم ومكتوبهم الأصل، تترسخ قوتهم الذاتية، وتتعزز عوامل الانسجام والتوازن في شخصيتهم وفي علاقاتهم، بما يصونهم عن الاضمحلال والذوبان، ويحفظهم من التبعية والتهميش والدونية»(7)، ولهذا سعى الاستعمار إلى «فرض لغة فرنسية»(8) لم يكن هدفها طبعا القيام «بوظيفة تعليمية ثقافية روحية ونفسية، ولكن تقوم بغسل العقل وجعله مستعدا لتقبل الهيمنة الأجنبية والاحتواء الحضاري»(9)، ففرض اللغة الفرنسية في الجزائر، غايته أن يفقد الشعب الجزائري خصوصياته ومقومات شخصيته ومجتمعه، ومن ثم انصهاره في فرنسا المستعمِرة وتبعته لها، وقد استغل هذا المستعمر التعليم في نشر لغته، حيث نهج سياسة مدرسية تبناها "جوزيف جاليوني"، تسعى إلى

إخضاع الجزائريين وجعلهم تبعا ثقافيا وحضاريا ولغويا لفرنسا، وقد كان التعليم مقتصرا على فئات دون غيرها، حيث لم تفتح المدارس لكامل الشعب الجزائري، وإنما كانت فرنسا تسمح بالتعلم لفئة قليلة أرادت من خلالها تحقيق مصالحها الخاصة.

وقامت فرنسا إلى جانب حرمان الجزائريين من التعلم في المدارس الفرنسية بقطع مصادر التعلم باللغة الأم، والممثلة في الكتاتيب القرآنية، والزوايا والمساجد، حيث ضيقت نشاطهم وحدت فاعليتهم في تنشئة الفرد الجزائري تنشئة عربية إسلامية سليمة، كما عزلت الجزائريين عن غيرهم من الأوطان العربية حتى لا تكون لهم روافد الثقافة والمعرفة والوعي، وقد نجحت على ضوء هذه السياسة من «تشكيل طبقة من النخبة التي اتخذت الفرنسية، لغة سياسية، ثقافية، وبراجماتية لحماية مصالحها»(10)، ومن هؤلاء النخبة المثقفة نجد كتابا جزائريين وأدباء تبنوا لغة الآخر الاستعماري، كضرورة أملتها الرغبة في الانفتاح على الآخرين وتبليغ صوتهم لهم، فتعالت بهذا أصوات من أمثال مولود فرعون، ومولود معمري، وآسيا جبار، ومحمد ديب، وكاتب ياسين، ومالك حداد...الخ، صادحة بهذه اللغة الاستعمارية، التي أعلنت عن ميلاد أدب جزائري مكتوب باللغة الفرنسية، وقد سبق هذا الأدب نظيره المكتوب بلغة عربية في الظهور، كاشفا عن زخم إبداعي أدبي غير هين بهذه اللغة، خصوصا في مجال الرواية، فنجد من الأعمال الأدبية لهذا الجيل الذي يكتب بلغة فرنسية: "ابن الفقير، الأرض والدم... لمولود فرعون"، "الدار الكبيرة والحريق... لمحمد ديب"، "نجمة...لكاتب ياسين"، "الهضبة المنسية، وإغفاءة العادل، والأفيون والعصا... لمولود معمري"، "العطش، وأطفال العالم الجديد... لآسيا جبار" وغيرها من المنجزات الأدبية التي لاقت شهرة ورواجا كبيرين بفضل لغتها الفرنسية.

وإن اتخذ هؤلاء الأدباء اللغة الفرنسية أداة للكتابة الأدبية، فقد اختلفت نظرتهم لها، فمنهم من عدها غنيمة حرب، حيث لا تشكل الكتابة بها حرجا، ومنهم من عدها منقصة، تشكل شرخا في شخصية الأديب، وقطيعة بينه وبين مجتمعه حيث انتهى للإحساس «بالغربة في هذه اللغة، الغربة التي تنتج عن التناقض بين الواقع الذي يتطلب التعبير عنه باللغة الأم وبين اللسان الذي يخاطب به الجمهور»(11)، وقد يطول بنا المقام لذكر موقف كل أديب من هذه اللغة ورأيه في الكتابة بها،

ولهذا نقتصر في هذا المقال على "مالك حداد"، كأحد الأدباء الجزائريين الذين «أضاعوا له لغته التي تشكل جزء من مقوماته التاريخية والحضارية»[12] وأدخلوا أدبه – كغيره ممن كتبوا بهذه اللغة – في إشكالية تصنيفية بين عده أدبا جزائريا أم أدبا فرنسيا، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما هو الموقف الذي اتخذه "مالك حداد" من استعمال هذه اللغة أمام حقيقة أن جزائريته تحتم عليه – في المرحلة الاستعمارية تحديدا – الدفاع عن الشخصية الجزائرية، وهويتها، ومقوماتها الوطنية باستعمال اللغة الأم العربية التي لا يكتمل دونها تجسيد ملامح الهوية الجزائرية، وتقديمها في صورتها الحقة للآخرين؟ وكيف تجلى موقفه من هذه اللغة في كتاباته؟

أ– مالك حداد – تعريف به:

هو شاعر وكاتب روائي، من مواليد قسنطينة (1927 – 1987)، تلقى تعليمه باللغة الفرنسية التي أقرها الاستعمار في المدارس، وكان من الكتاب الجزائريين الذين يكتبون بلغة فرنسية، عاش في المنفى في المرحلة الاستعمارية ورجع للجزائر بعد الاستقلال، وقد ظل طوال حياته حاملا مأساة لغته الفرنسية و هم عجزه عن التعبير بلسان عربي بيِّنٍ لأبناء جلدته.

هو«صاحب المجموعة الشعرية الأولى له "الشقاء في خطر"، سنة 1956، والروائي الذي أنجز أول رواية له سنة 1858 بعنوان: "الإنطباع الأخير»[13]، له دواوين شعرية وروايات أخرى منها:

- استمع وأناديك: Ecoute et je t'appelle ديوان شعري.
- سأهبك غزالة: Je t'offrirai une gazelle رواية.
- التلميذ والدرس: L'élève et la leçonرواية.
- رصيف الأزهار لا يجيب: Le quai aux fleurs ne répond plus رواية، كما له العديد من المقالات التي يتحدث في أغلبها عن لغة الآخر المستعمر وموقفه منها.

ب–صراع الذات واللغة عند "مالك حداد":

لقد كان الاستعمار الفرنسي «يحلم أن يجعل من الكتاب الجزائريين بيادق استعمارية، ورموزا مرجعية تخدمه على الصعيدين الاجتماعي والثقافي»[14]، ورغم أن فرنسا نجحت في تشكيل مثقفين

جزائريين بلسان فرنسي، فإنها فشلت في جعلهم خدما لمصالحها، ويعتبر "مالك حداد" أبلغ نموذج عن هذا الفشل الذريع الذي منيت به فرنسا، وإن كتب هذا الأديب بلغة فرنسية فإن روحه جزائرية محضة، ما أدخله في صراع بين ذاته التي ترفض التبعية الثقافية لفرنسا، وبين اللغة الفرنسية التي وجد نفسه مضطرا لتبنيها لإيصال صوته للأخرين.

يعد هذا الأديب من أبرز الكتاب الجزائريين الذين تحدثوا عن لغة الآخر الاستعماري، فهو يحس بغربة لغوية يطالعنا بها في الصفحات الأولى من روايته "سأهبك غزالة"، إذ يشير إلى أن اللغة الفرنسية تفصله عن وطنه أكثر مما يفصله عنه البحر الأبيض المتوسط، هي تصنع عجزه عن التعبير بالعربية عما يشعر به، وعما ينبغي أن يعبر عنه في حقيقة الأمر بلغته الأم.

ونشير في هذا المقام إلى أن لـ "مالك حداد" موقفا ملتزما من اللغة الفرنسية، وفي توصيفه لحالته الثقافية قال كلمة نالت من الشهرة ما لم تنله بعض أعماله الأدبية: "الفرنسية منفاي"، لقد حدد هذا الإحساس بالاغتراب مسار كتابات "مالك حداد" كلها، حيث نحى إلى تبني القضية الجزائرية كمحور أساس في أدبه، تثبت ذاته وانتمائه إلى مجتمع، وحضارة، وثقافة مختلفة عن حضارة الآخر الاستعماري.

ورغم التزام "مالك حداد" بالقضية الجزائرية ودفاعه عن اللغة العربية، فهو دائم الإحساس بالنقص، لأنه يفعل ذلك بلسان فرنسي قاده إلى انقطاع التواصل مع بني جلدته من العرب عموما، والجزائريين خصوصا يقول: «...إنني معقود اللسان، أنا الذي أغني باللغة الفرنسية...يجب أن تفهمني جيدا إذا ما كانت لغتي تثيرك، لقد أراد الاستعمار ذلك، لقد أراد الاستعمار أن يكون عندي هذا النقص»(15).

لقد كشفت مقولات "مالك حداد" وموقفه من اللغة الفرنسية عن حالته النفسية المأزومة، وعن مأساة يحياها، فلسانه الفرنسي جعله يحس باستئصال ثقافي، وغربة لغوية كلما أراد التعبير عن ذاته الجزائرية، أو قضايا وطنه، وسرعان ما صُعِّد هذا الصراع لاحقا إلى مستوى أعلى فأصبح مشكلة ثقافية حضارية تطرحها الساحة الأدبية والثقافية كل مرة، تتعلق بهوية هذا الأدب المكتوب باللغة

الفرنسية، فمن المعلوم أن اللغة «أداة الأدب الأساسية هي التي تحدد هويته وانتماءه الخاص لجنس أو وطن أو تاريخ أو جغرافيا أو غير هذا»[16]، وعلى هذا الأساس تضاربت مواقف النقاد والدارسين «فهناك من يرى أنه أدب فرنسي خالص وهناك من يرى أنه أدب ذو قلب عربي وعقل فرنسي على اعتبار أنه أدب مكتوب بروح عربية، مترجم إلى الفرنسية، أي أنه ترجم الروح العربية والبيئة العربية إلى لغة الآخر»[17].

ورغم كل ما قيل حول "مالك حداد"، فإننا سنتجه للتدليل على موقفه من اللغة الفرنسية، وتجليات الهوية عنده تطبيقيا من خلال استقراء مختارات من أشعار ونصوص له بعنوان "عام جديد بلون الكرز"، إضافة إلى روايته المعنونة بـ "الإنطباع الأخير"، وسنحاول في ظل هذا تقديم رأي منطقي حول ما إذا كان استعمال "مالك حداد" للغة فرنسية خيانة للهوية الجزائرية أم لا.

أ- "عام جديد بلون الكرز":

هي عبارة عن مجموعة من النصوص والأشعار المختارة لـ "مالك حداد"، مترجمة إلى العربية، حيث قام بترجمتها "شرف الدين شكري"، وسيتم في هذه الجزئية الاعتماد على نموذج نصي، وبعض المقتطفات الشعرية من أجل الوقوف عند تجليات الهوية، ومأساة اللغة عند "مالك حداد":

تطالعنا هذه المجموعة بنصوصها، وأشعارها بخصوصية موضوعاتية، حيث يتعرض "مالك حداد" في هذه المجموعة إلى همه المزدوج، قضية الجزائر العادلة ولسانه الفرنسي، فراح يستلهم أحداث الثورة وهم الكتابة بلغة غير لغته، إنه يحمل عشق الجزائر غير أنه يعجز عن التعبير بلغتها، وهذا ما عزز لديه الشعور بالاغتراب، وقاده إلى التشتت والصراع النفسي، وتتجلى حالته هذه عبر كلماته، حيث يقول في نصه "الأصفار تدور حول نفسها":

«قذف بنا عشق الجزائر، في زوغان التشتت، لم نهرب من المأساة، لأنا نحملها فينا، لأنا سوف نأخذها معنا أينما ولينا وجوهنا، لأن أشعارنا، ورواياتنا سوف تسهم في التعريف بها».[18]

ويؤكد "مالك حداد" في موضع آخر ضرورة العودة إلى وطنه باعتبار أن المنفى قضية طارئة سرعان ما تتلاشى أسباب استمراريتها، مؤكدا على التمسك بالأصل، وعدم انسلاخه عنه رغم تكوينه وثقافته الفرنسية، ومقرا بانتمائه للجزائر، الوطن الذي وإن ابتعد عنه فلا بد من رجوعه إليه، باعتبار أن الفرع دائما وأبدا جزء من الأصل يقول:

«سوف نهجر المنفى، ليس من أجل الحج، ليس حتى من أجل العودة إلى الأصول، لأنا أبدا لم نهجر الأصول، لأن النملة والزيزان، كلها مكيفة، لأن الشجرة بحاجة إلى جذورها وإلى جذور أرضها، لأن الوطن محطتنا الإبتدائية».(19)

كما يقر "مالك حداد" في النص ذاته على خصوصيات الهوية الجزائرية، منددا بأفعال فرنسا الطويلة المدى في خنق الثقافة والسياسة الجزائرية، ومؤكدا على صمود الشعب الجزائري أمام مساعي التشوية التي تعرض له من طرف الاستعمار، وذلك من خلال تمسكه بمقومات هويته من دين، وأصالة ثقافية ولغة تستمد قداستها من الدين الإسلامي يقول:

«لن نكل من الترديد، بأن قوسا مفتوحا لخنق الثقافة والسياسة، ممتد منذ 124 سنة، من الخامس من شهر جويلية 1830 من كسوف شمس الإستعمار، حتى الواحد من شهر نوفمبر 1954، لن نكل من الترديد، بأن للإسلام ودعاته مكانة كبيرة في الجزائر، يرجع إليها الفضل في الحفاظ على آخر المعالم الأصيلة التي لم ينل منها التشويه، على خصوصيته اليومية، أصالته الثقافية، وأخيرا على ما تبقى له من وحدة عضوية وتراص في عبارته التأسيسية: اللغة».(20)

ويكشف "مالك حداد" في موضع آخر على خصوصيات هوية الأديب الجزائري ذو اللسان الفرنسي والتي لا تنفصل عن الهوية الجزائرية ككل، فرغم اللسان الفرنسي فهو ينتمي إلى حضارة جزائرية مغايرة لحضارة المستعمر، مما يؤكد ثبات الذات الفردية لهذا الأديب وكذا الجماعية التي يكشف عنها في أعماله في مقابل مساعي الانسلاخ التي سعى لتحقيقها الاستعمار بفرض لغته وثقافته، وفي مقابل المنفى الاضطراري الذي يعيشه يقول:

«أثر الإسلام فينا يميزنا، ولا يمكن أن يفرق بيننا، فلكلورنا، طرائق تفكيرنا واحساسنا وممارستنا، خاصة بنا، حتى ونحن نعبر بالفرنسية، نحمل حلما، غضبا وشكوى تنبع من قرون وقرون من تاريخنا الوطني»[21]

إن هذا النموذج النصي لا يختلف في اهتماماته عما يهتم به "مالك حداد" في أشعاره من قضايا، فكل كتاباته تفيض بحس وطني حماسي، فـ "مالك حداد" يستمد مواضيع شعره من أرضية جزائرية بمختلف أبعادها تاريخية، وثورية،.... ومن نماذج ذلك نذكر توظيفه لرمز من رموز الثورة الجزائرية، وعنوانا من عناوين النضال، والصبر، والتحدي للعدوان الفرنسي الغاشم، إنها "جميلة بوحيرد"، يقول "مالك حداد" في قصيدته المعنونة بـ "لأجل جميلة":

غدا، ستكون الأمطار لك
والحصاد..سيكون لك
وغدا، سوف نمضي لكي نلقي السلام على الجزائر
كنت، عبر الهنالك عربون العصافير.[22]

تنبض كلمات "مالك حداد" في هذه القصيدة أملا وتطلعا لغد جزائري أفضل، غد تمطر فيه الجزائر حرية، الحرية التي تنشر السلام والأمن في نفوس الجزائريين، الحرية التي لن تجعل من الماضي الاستعماري سوى ذكرى تدفع إلى صنع جزائر أفضل حيث يقول:

ستكون الأمطار لك
غدا، سوف نبني معبد الماضي
غدا، سيكون الصباح لك...[23]

ويختم الأديب قصيدته بفخره بـ "جميلة" النضال، جميلة الشرف، فهي رمز بطولي لا ينكر شجاعته وبسالته ومواقفه الثابتة أمام الاستعمار أحد، ويتجلى فخره في قوله:

للجميلة قوام الجرم
وعندنا، يسمى الشرف جميلة.[24]

و في مواضع أخرى من المجموعة الشعرية "عام جديد بلون الكرز" نجد "مالك حداد" يعتصر ألما أمام السياسات الاستعمارية الظالمة، فتنبض كتاباته تعبيرا عن حقائق واقعية، وممارسات استعمارية قمعية في حق شعبه وحقه شخصيا، فقد صدر فيه قرار الاعتقال بسبب طروحاته المدافعة عن الجزائر، وتعرض منزله بقسنطينة بموجب هذا القرار للاقتحام، مما ولد توترا وأذى نفسيا لوالدته، بسبب خوفها على ابنها، يقول في قصيدة "بداية المنفى:إنها تمطر":

جاؤوا إلى بيتي
بقسنطينة
جاؤا مساء
فهم يزعجون الأحلام دوما في المساء
والدتي وجلة
وبيتي يغمض عينيه.(25)

ورغم كل ما بذله "مالك حداد" من جهد في التعريف بالقضية الجزائرية وإخراجها من الحصار الذي فرضته عليها فرنسا، فقد ظل إحساس الحسرة ملازما له في أشعاره، حيث تتعالى نبرة كلماته ألما وأملا في الآن ذاته، ألما لأنه عاجز عن التعبير بلسان أبناء وطنه، وأملا في أن تلق كلماته رغم غربتها صدى وأذانا منصتة يقول في قصيدته أنصت... وسأناديك:

رغم أغاني الأدغال المحروقة
أنصتوا إلي
إنني أتحدث بلسان الأموات
أنصتوا إلي
إنني أخط بيد مكسورة على أدغالها.(26)

ويؤكد "مالك حداد" في القصيدة ذاتها التزامه الدائم بالقضية الجزائرية وشؤون الشعب الجزائري، مقرا في الآن ذاته إجرامية فعله ذلك بلسان غير لسانهم، سائرا دائما على درب الحسرة والألم كلما نحى إلى الكتابة يقول:

مرآتكم أنا
وجميل هو المجرم

وأنا أحمل الشحوب المناسب
لتلك الحقيقة التي تؤلم حين تقال.(27)

وإن اقتصرنا في هذه الدراسة على ما ذكر من النصوص والأشعار، فإننا نشير إلى أن هذه المجموعة "عام جديد بلون الكرز" تنحى المنحى ذاته في كامل نصوصها، فهي نصوص ذات نزعة إنسانية، كاشفة عن التزام "مالك حداد" بالقضايا العادلة عموما، وقضية الجزائر خصوصا، وبغية التدقيق أكثر في موضوعة "لغة الآخر وواقع الذات" من خلال كتابات "مالك حداد" نردف نموذجا روائيا بعنوان "الإنطباع الأخير".

ب- "الإنطباع الأخير":

هي أول رواية للأديب "مالك حداد"، صدرت سنة 1958، ترجمها إلى العربية "السعيد بوطاجين" سنة 1989، وقد ظهرت هذه الرواية في مرحلة حرجة ارتبطت بمساعي فرنسا لطمس الهوية الجزائرية، ولهذا فإن الرواية تجسد صراعا بين حضارتين، وتكشف عن علاقة شائكة ومعقدة بين الجزائر المستعمَرة وفرنسا المستعمِرة، وتعج الرواية بالمظاهر التي تجلي هوية الفرد الجزائري وانتمائه رغم كتابتها بلسان فرنسي، ولهذا نقتصر في هذا الموضع على سيرورة بطل الرواية "سعيد"، الكاشفة عن ذلك.

يعتبر "سعيد" شخصية رئيسة في الرواية، يصور لنا فيها تشتتا للهوية الجزائرية، وضياعا لها، ويكشف في الآن نفسه عن مساعي البحث عن تحقيق الذات ولملمة شتات الهوية، فـ "سعيد" بطل الرواية مهندس ومواطن فرنسي، من أصل جزائري، بنى جسرا بعد تخرجه واعتبره مفخرة له كإنجاز أولي في مساره المهني، غير أن هذا الجسر كان خادما لفرنسا، حيث كانت تستغله هذه الأخيرة في العبور بالعتاد من أجل تدمير القرى والأرياف الجزائرية، فلم تجد المقاومة الجزائرية من حل سوى تدمير الجسر، فطلبت من "سعيد" تزويدها بمعلومات حول أكثر النقاط ضعفا في ذلك الجسر، والتي من شأنها أن تؤدي إلى تدميره، وهذا ما أدخل "سعيد" في حالة صراعية بين هويتين، فهو مواطن مقبول فرنسيا، يعيش حياة هادئة مع الفرنسيين، إلا أن انتماءه الجزائري ووطنه الأصل (الجزائر) يناديانه، ليختار "سعيد" في الأخير، وبعد تردد تخريب الجسر الذي كان وجوده رمز التواصل بين

فرنسا والجزائر، وتدميره في الحقيقة ما هو إلا اعلان للقطيعة وانعدام أشكال التواصل بين فرنسا المستعمرة والجزائر، وإثبات للانتماء الجزائري.

ويطالعنا "سعيد" في الرواية كذلك بصورة أخرى من صور إثبات الذات الجزائرية، وانفصالها عن الثقافة الفرنسية، وحضارتها وذلك من خلال علاقته بالفتاة الفرنسية "لوسيا"، هذه الأخيرة التي أحبت "سعيد"، لكن الفراق في الأخير كان نصيبهما، فقد رأى فيها "سعيد" ثقافة مغايرة لثقافة مجتمعه، ورأى من بني جلدتها ما يجعله يتردد في استمرار علاقته بها، ليوحي بهذا بانفصال الثقافتين أو الحضارتين الجزائرية والفرنسية، ورفض الفرد الجزائري لأشكال التواصل مع المستعمر، واستحالة العيش أو التعايش بين أفراد الثقافتين في ظل السياسة الاستعمارية المنتهجة، والاختلاف القائم بين الجزائر وفرنسا على أكثر من صعيد.

ورغم ما جسده "سعيد" من انتماء للجزائر بتدميره للجسر وانفصاله عن "لوسيا"، فقد ظل يتساءل دائما عما يمكن تقديمه أكثر كدليل على الانتماء، خصوصا بعدما تعرت الممارسات الاستعمارية أمامه، ورأى فضاعة ما تقوم به فرنسا في حق الجزائريين، ليصل في الأخير لحقيقة وجوب التضحية بالنفس من أجل الوطن، وهو ما وقع فعلا حيث استشهد "سعيد" في الأخير، لتنتهي الرواية باستشهاده.

لقد كشفت كتابات "مالك حداد" سواء في مختاراته نصوصا وأشعارا وفي روايته، عن إجلاء لمقومات الهوية بمختلف أبعادها، فرغم أن اللغة التي كتب بها فرنسية، إلا أن المضمون يكشف عن ذات وإنتماء جزائري، ونلمس بوضوح تناوله في كتاباته لموضوع اللغة التي شكلت مأساته، إشارات للدين الإسلامي، الانتماء الجزائري.....الخ، وهي نفسها الأبعاد أو العناصر المشكلة لهوية الفرد الجزائري، وخصوصياته المغايرة لخصوصيات الآخر الفرنسي.

وتدور كل كتابات "مالك حداد" في عمومها في فلك واحد، فقد جعل من القضايا الإنسانية العادلة، و القضية الجزائرية تحديدا محورا لها، وهو يستمد منها أسباب الكتابة بلغة فرنسية، فرغبته في التعريف بهذه القضية، جعله يتبنى اللغة الفرنسية لسانا له، فدون هذه اللغة لا يمكن إخراج

القضية الجزائرية للعلن، خصوصا أمام حالة الانغلاق الثقافي التي تعيشها الجزائر بفعل الهيمنة الاستعمارية، ومما قد يؤكد هذا أنه عزف عن الكتابة نهائيا بهذه اللغة بعد استقلال الجزائر، لأنه يرى أن أسباب الكتابة بها قد زالت والتي تمثلت في الاستعمار الفرنسي، ليعيش بعد ذلك على أمل إتقان اللغة العربية، وهو الأمل الذي عجز عن تحقيقه إلا من خلال ابنه الذي جعله حجة في اللغة العربية، وكأنه ينتقم بهذا من اللغة الفرنسية، مرسخا في الآن ذاته مأساته اللغوية التي عجز بموجبها عن الدفاع عن القضية الجزائرية بلغة يفهمها الجزائريون، فـ "مالك حداد" الذي كتب لأجل الجزائر والجزائريين وجد نفسه "يتيم القراء" حسب تعبيره، فالشعب الجزائري كان في أغلبه أميا لا يجيد لغة المستعمر ولا ثقافته، وكان "مالك حداد" في إطار ذلك في موضع إثبات الذات للآخر، فهو يكشف من خلال تعريفه بقضية الجزائر وهوية الجزائريين عن قضيته وهويته، باعتبار انعدام قدرة الجزائريين خصوصا والعرب عموما على قراءة كتاباته.

ونشير في هذا الموضع إلى أن موقف "مالك حداد" يكشف عن مدى الأهمية التي تشكلها اللغة داخل النسيج الحضاري والثقافي للمجتمع، وعن دورها في تمييز هوية الأفراد، وانتماءاتهم الثقافية، ولقد رفض بموجب أهميتها استمرارية الانضواء تحت لواء لغة جعلته يتموضع في الهامش، لا هو ينتمي إلى ثقافة جزائرية باعتبار لغته الفرنسية، حيث تعد اللغة من مقومات الهوية، وعاملا من العوامل المشكلة لثقافات المجتمعات، ولا هو ينتمي لثقافة فرنسية باعتبار رفض المجتمع الفرنسي له، نظرا لطروحاته الإيديولوجية، ومواقفه الملتزمة بالدفاع عن الجزائر، والتعريف بقضيتها، وبخصوصياتها ثقافيا، وتاريخيا، ولغويا...

وإن هذا ما يجعلنا نقول – أمام افتراض وجود نوايا التشكيك في خيانته للهوية الجزائرية – أن لسانه الفرنسي كان نتيجة سياق تاريخي حتم عليه وعلى المثقفين والأدباء عموما، تبني اللغة الفرنسية للتعريف بالقضية الجزائرية، التي كانت اللغة العربية حينها قاصرة عن التعريف بها، وهذا ما يجعلنا نعود من جديد هنا لإشكالية هوية هذا الأدب المكتوب بلغة فرنسية من قبل كتاب جزائريين – لنقول ما سبق أن قاله "عبد الله الركيبي"، في اعتبار هذا الأدب أدبا جزائريا وإن كانت لغته فرنسية، لأنه «قام بدور التعريف بالنضال (...) والتعبير عن تطلعات هؤلاء الأدباء (الذين

كتبوا بهذه اللغة) إلى الحرية والاستقلال»[28]، ونشير بهذا الصدد إلى أن مصطلح الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية محصور فقط في أدب مرحلة الثورة والستينيات، «أما الآن فإن ما يكتب بهذه اللغة الأجنبية هو شذوذ عن القاعدة وخروج عن الواقع الطبيعي المألوف بل وتحد سافر للتاريخ وللثوابت الوطنية»[29]، وبهذا فهو ليس أدبا جزائريا بلغة فرنسية، وإنما هو "أدب فرانكوفوني" ينتمي إلى ثقافة فرنسية، «وبالإضافة إلى أن هذا الأدب يخدم الفرنسية وثقافتها، فإنه يحدث ضبابا في جو الثقافة الذي ينبغي أن يكون عربيا»[30].

وإن هذا الحكم في إطلاق تسمية "الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية" على أدب الجيل الأول، وتسمية "الأدب الفرانكوفوني" على أدب الجيل الجديد يعود إلى اختلاف موقف كل منهما من استعمال اللغة الفرنسية، فأدباء الجيل الأول استعملوا الفرنسية «دفاعا عن الشعب الجزائري ونضاله أو دفاعا عن أنفسهم، لأنهم لم يتعلموا العربية»[31]، بينما الجيل الجديد من المثقفين والأدباء«أصبحوا يفخرون بإتقانهم للفرنسية وجهلهم للعربية ويجاهرون بلا مواربة بأنهم لا يفكرون في دراسة العربية حتى لو أتيح لهم ذلك»[32]، وهذا ما يعد انسلاخا أو استلابا ثقافيا، لأن أمر تبني اللغة الفرنسية كان عن قناعة ذاتية، وليس نتيجة ظروف قهرية كما كان في المرحلة الاستعمارية، وكأنهم بهذا ينظرون لفرنسا وثقافتها نظرة مغلوب يذوب في الغالب ويتشدق بقوته، وإن كان هدف هؤلاء الوصول للعالمية فإن عالمية الأدب الجزائري الحقة ينبغي أن تنجز من خلال اللغة العربية التي تعد أحد مقومات الهوية الجزائرية وهوية هذا الأدب الجزائري، وفي كل الحالات، فإن اعتراف الآخر بهذا الأدب المكتوب بلغته يكون بمقدار اقترابه من ثقافة هذا الآخر وايديولوجيته، بدليل حالة التهميش التي عاناها "مالك حداد" في فرنسا رغم لسانه الفرنسي.

خاتمة:

لقد انتهى الوقوف عند قضية اللغة وواقع الذات في كتابات مالك حداد إلى أهمية اللغة في تمييز الشعوب والحضارات والهويات، وقد كشفت كتابات "مالك حداد" عن حالة صراعية بين لغة الآخر والذات أو الهوية، فاللغة الفرنسية فُرضت عليه نتيجة معطى تاريخي أدخله في حالة نفسية مأزومة نتيجة الإيقان بأن تبني لغة الآخر الفرنسي خروج عن خصوصيات الهوية الجزائرية، التي كانت

تحتاج في المرحلة الاستعمارية الدفاع عنها بلسانها، وقد قاد هذا الصراع إلى إشكالية أخرى تدور حول هوية أدب "مالك حداد" وغيره من الأدباء الجزائريين الذين كتبوا باللغة الفرنسية، ونجد أنفسنا اليوم – في ظل كل الجدالات الثقافية المطروحة – ندعوا الساحة الأدبية والثقافية إلى تخطي هذه النظرة الضيقة لهذا الأدب وهويته، وكذا لهوية الأديب وذلك بتبني نظرة محايدة وحضارية لهذه القضية، فاللغة الفرنسية التي ينظر إليها في الجزائر بمرجعية استعمارية توجب بحكم التغييرات والتطورات الحضارية والعالمية تغيير النظرة إليها من نظرة صراعية، إلى نظرة حوارية.

فصراع الحضارات الذي تجسد في هذه الدراسة من خلال فرنسا والجزائر، كان في البداية نتيجة التواجد الفرنسي بالجزائر ومساعي فرنسا لطمس الهوية الجزائرية، أما جزائر اليوم، جزائر الاستقلال فعليها أن تنظر بوعي للحضارة الفرنسية وغيرها من الحضارات، وتأخذ بها من باب حوار الحضارات حتى لا تقودنا نظرتنا الضيقة للغير إلى الانغلاق على الذات، وعدم مواكبة التغيرات الحضارية والثقافية التي يشهدها العالم.

وإن القول بحوار الحضارات لا يعني مواكبة حضارة الآخر والانفتاح عليها بقدر ما يعني الحفاظ في الآن ذاته على خصوصيات الهوية في محاورة هذا الآخر والاستفادة من ثقافته وحضارته، وأي تبني مقصود لثقافة الغير اليوم وذوبان فيها دون الحفاظ على خصوصيات الهوية سيعتبر انسلاخا وخروجا عن انتماء حضاري وثقافي لآخر لا مبرر له سوى الشعور بالنقص، والانبهار بالآخر، والخضوع له اعتقادا بقوته وكماله.

الهوامش:

[1] الطيب بودربالة: ترجمة الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية إلى العربية، المجلس الأعلى للغة الغربية، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2007، ص85.

21] فتحي بوعجيلة: الأداء اللغوي في الفضائيات العربية: من أجل التأصيل والتوصيل، مجلة الإذاعات العربية، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد إذاعات الدول العربية، ع4، 2013، ص53.

[3] محمد بن عبد الكريم الجزائري: لغة كل أمة روح ثقافتها، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، (د.ت)، ص8.

[4] المرجع نفسه، ص8.

[5] المرجع نفسه، ص7.

[6] عبد الله حمادي: مساءلات في الفكر والأدب، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1994، ص295.

[7] فتحي بوعجيلة: الأداء اللغوي في الفضائيات العربية: من أجل التأصيل والتوصيل، ص53.

[8] واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر (بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص40.

[9] عبد الله الركيبي: الفرانكوفونية مشرقا ومغربا، دار الكتاب العربي، (د.ت)، ص57.

[10] عز الدين المناصرة: الهوية والتعددية اللغوية – قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2004، ص352.

[11] عبد الله الركيبي: الفرانكوفونية مشرقا ومغربا، ص105.

[12] واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص46.

[13] عمر بن قينة: أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص165.

[14] واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص27.

[15] سعاد خضرة: الأدب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية، بيروت، 1967، ص88.

[16] عبد الله الركيبي: الفرانكوفونية مشرقا ومغربا، ص93.

[17] عز الدين المناصرة: الهويات والتعددية اللغوية، ص388.

[18] شرف الدين شكري: عام جديد بلون الكرز – مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد، كتاب الدوحة يوزع مجانا مع العدد 75 من مجلة الدوحة، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، جانفي 2014، ص108.

[19] المصدر نفسه، ص109.

[20] المصدر نفسه، ص112.

[21] المصدر نفسه، ص118.

[22] المصدر نفسه، ص31.

[23] المصدر نفسه، ص31.

[24] المصدر نفسه: ص33.

[25] المصدر نفسه، ص22.

[26] المصدر نفسه، ص27.

[27] المصدر نفسه: ص38.

[28] عبد الله الركيبي: الفرانكوفونية مشرقا ومغربا، ص94-95.

[29] المرجع نفسه: ص95.

[30] المرجع نفسه: ص95.

[31] المرجع نفسه: ص96.

[32] المرجع نفسه: ص96.